المحاضرة: بول فيربند والفوضوية العلمية

يمكن القول إن باول فييرآبند (Paul Feyerabend) –وتنطق "فَييِر–آبِند"– فيلسوف العلم الشهير نمساوي الأصل هو نيتشه العِلم، فقد أمسك –عبر تعدديته المنهجية– بفأس قوي وحطّم به كل ما يمكن الإشارة له على أنه مقدس في المشروع العلمي. قد تكون ناقدا جيّدا، قد تكون محبا للنقد، لكنك بالتأكيد ستُصدم في مواجهة عدائية التحرك الفلسفي الذي أقبل فييرآبند عليه، لن تكون بذلك الجموح وتلك الوقاحة أبدا، وقاحة الرفض كما يرى البعض.

يعلمنا نيتشه أن الفيلسوف لا منهج محدد له سوى الوقوف ضد توجهات المجتمع، لأن تلك التوجهات تصنع في نهاية الحكاية كيانا مقدسا يمتلك سلطة للحكم على الآخرين ويحاول من خلالها تمرير ما يرغب في صورة مقدسة مثله، يتخذ فييرآبند نفس المنهجية ليقول إن العلم الذي يدّعي رجاله أنه الفاتح، بطل الحرب ضد الخرافة، المُحرر من قيد التكلّس المعرفي، وأمين سرّ الحرّية الفكرية، كان كذلك فقط في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لأنه دفع الناس في الشوارع والبيوت إلى التشكيك فيما ظنّوا أنه قناعات موروثة، لكن العلم الآن يختلف، فيقول: "إن العلم ليس كتابا مغلقا لا يمكن فك طلاسمه، بل هو نظام عقلي يمكن أن ينتقده أي شخص معني بأمر العلم، وإن الصعوبة المزعومة للعلم ترجع إلى الحملة الأيديولوجية المنظمة التي يشنها العديد من العلماء لإدخال الرعب في نفوسنا من العلم

1/–نقد فيرابند كارل بوبر وتوماس كوهن:

لقد عارض فيرابند جميع فلاسفة العلم السابقين وسار في منحى معاكس لما طرحه ، فجميعهم جعلوا من خاصية التماسك والانسجام عاملا مهما عند المفاضلة بين النظريات العلمية وفي نظره برى أن الذين يتمسكون بالانسجام يبدون طغاة، وبذلك نقد كل من كارل بوبر وتوماس كوهن.

1–نقد فيربند لكارل بوبر:

لقد وجه فييرآبند نقده للفلسفة البوبرية عبر طريقين، نقد المعرفة الموضوعية ونقد القابلية للتكذيب، فيقول إن بوبر بشكل ما يُناقض ذاته حينما يقول إن المعرفة برغم أنها من إنتاج الإنسان فإنها تظل

مستقلة عنه، وهو أمر يبدو مستحيلا، فإذا كانت الاعتقادات سابقة للتجريب فإنها تؤثر في كل شيء في حياتنا، في خبرتنا عن العالم نفسه. هنا يستمر فييرآبند في نقد بوبر قائلا إن ما نسميه "العقلانية النقدية" ليس في الأساس نقدا، فالمعنى الحقيقي للنقد هو الاستمرار في التساؤل عن نقاط ضعف أفكارنا التي نقدمها، لكن القواعد التي يفرضها بوبر –القابلية للتكذيب نموذجا، المعيار الذي يقول إنه يعرقل العلم تقوّض من حرّيتنا في النقد، فيصبح نقد كارل بوبر هو نسخة باهتة غير –أكثر ما يعطيه الفرصة للتقدم حقيقية للنقد، وبالنظر لتاريخ العلم سوف نجد في حالات كثيرة –حالة جاليليو مثلا كما عرضنا منذ قليل .وكوبرنيكوس كذلك– أن القابلية للتكذيب لم تكن لتنجح في تطوير العلم.

ب– نقد فيربند لتوماس كوهن:

ينطلق فييرآبند بعد ذلك لنقد نماذج توماس كون الإرشادية قائلا إن كون هنا يطلب من العلماء أن يلتزموا بأيديولوجيا النموذج الإرشادي التي يهندسونها بأنفسهم، بل يصل الأمر بفييرآبند للقول إن العلم هو والجريمة المنظمة سواء، حتى إنه يمكن لنا أن نضع اصطلاح (Normal Science) القياسي موضع "علم قياسي" في كل موضع بكتابات توماس كون ونحصل على نفس النتائج، ""جريمة منظمة وبذلك يؤدي وجود تلك الحالة إلى تقييد صارم للحرّيات الإنسانية، للإبداع، للخوض ضد سلطة المنهجية .العلمية السائدة

2/– مفهوم الفوضوية الابستمولوجية:

الفوضوية مصطلح أساسي وجوهري في فلسفة "فيرابند" استخدمه كبديل ليواجه به أصحاب النزعة العقلانية الذين يشيدون بدور المنهج الواحد في الممارسة العلمية، فالفوضوية نجمت عن رفض كل ما هو صارم كالقول بالعقل والموضوعية والمنهج كما هو متداول في العرف الابستمولوجي، لذا قدم مقاربة جديدة لم تعرف الابستمولوجيا لها مثيلا من قبل خاصة عندما جرد العلم من قيود المنهج ونادى إلى الفوضوية المعرفية. فوضوية نقلها من عالم السياسة إلى ميدان العلم، وهي في الأصل مذهب سياسي فهي ايديولوجيا اجتماعية سياسية تمجد الفردانية والإرادية، وتجعل من ارادة الانسان وحريته في التفكير والابداع أساس كل تقدم، والغاء الرقابة السياسية على المجتمع معتبرا الدولة وقوانينها أكبر أعداء الفرد. الأمر نفسه يطبق على العلم في نظر فيرابند لأن " العلم أساسا مشروع فوضوي" و هو الأنجح لتقديم أكثر من البدائل المنهجية الأخرى.

3/–ضد المنهج:

لقد لفت كتاب "ضد المنهج" الانتباه صراحة إلى نتيجة "الفوضوي المعرفي" بأنه لا توجد قواعد منهجية مفيدة مستثناة تحكم تقدم العلم أو نمو المعرفة. إن تاريخ العلم معقد لدرجة أنه إذا أصررنا على منهجية عامة لن تمنع التقدم، فإن "القاعدة" الوحيدة التي سيحتويها ستكون اقتراحا غير مجدي: "كل شيء مقبول".

من بين الافكار الأساسية في فلفة فيرابند رفضه للمنهج العلمي الواحد فهم يعارض أي مبدأ يتسلح بدعاوى المنطق والعقل في ايجاد الطريق المناسب للوصول إلى الحقيقة. فلا يوجد منهج ثابت كلي ولا يمكن أن يلتزم الباحث بمجموعة من الاجراءات الجامدة التي تقيد فكره وتجعله يشتغل داخل نسق معين يحد من إبداعاته لذلك دعا للتحرر من قيود المنهج حتى يتمكن العلماء من الاستفادة من التجارب المتنوعة التي لا تخدع لمنهج معين، فلا يمكن حصر الحقيقة داخل أسوار المنهج، فكل الانجازات التي تمت في العلم لم تكن وليدة المعيير المحددة ومقاييس جاهزة، بل هي نتاج لخيال الإنسان الحر المبدع.

إن الاتزام بقواعد المنهج تؤدي حتما إلى الحد من قدرات العقل ونثبط عزيمة الخيال في الابداع وتجعل العقل حبيس المعايير والقواعد المنهجية، ويقلص من فرص النجاح لأنه يتنافى مع طبيعة العلم القائمة غلى الابداع، فلا يمكن حصر هذا التنوع والقضاء عليه واقصائه بام صرامة المنهج الواحد. فرفض بذلك المنهج الكلي وجميع العقلانيات، يقول في ذلك: " إن فكرة منهج كلي راسخ، والتي تعد مقياا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية". فالممارسة العلمية لا تتبع أي منهجية خاصة".

4/– التعددية المنهجية:

إن الممارسة الواقعية للعلم تفترض وجود مناهج متعددة تتماشى وطبيعة الموضوع المراد دراسته والقول بالمنهج الواحد يؤدي حتما إلى تقليص مساحة العلم ذاته ويهدد كيانه ويجعله غير قادر على مواجهة واقتحام الأفكار والتصورات والتقاليد اللامعقولة فيحرمنا من الكثير من النظريات، فليس هناك منهج شامل صالح لكل الممارسات العلمية ، بهذا الموقف لا يقصد به فيرابند استبدال مجموعة من القواعد العامة بمجموعة أخرى، بل هدفه إقناع القارئ أن كل المناهج، وحتى أكثر وضوحا لها حدود وأفضل طريقة لتوضيح ذلك هو تحديد الحدود وعدم عقلانية بعض القواعد التي ينظر إليها على أنها أساسية.

من كل ذلك، يجب أ لا يفهم أن فيرابند يرفض المنهج بل إنه يطرح منهج بديل فهو يؤكد على تقبل كل المناهج دون استثناء بل يعترف بكل المناهج والأفكار ورفض الأحادية، فالممارسة الحرة للعمل العلمي

ليس حقيقة تاريخية بل إنها تتمتع بمعقولية فائقة وبالتعددية، فهم يروج بروح التعدد في المنهج ويدعو إلى التفتح في مجال مازال لم ينل حقه من الدراسة. فالعلم في نظره ليس نظاما معرفيا مقدسا، إنه نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة الأخرى المعرفية ، فلا يجب أن ننظر إليه وكأنه كيان لا يدانيه إلا الحق المطلق والخير المطلق إ فهذه النظرة التقديسية للعلم ازدادت جمودا وتحجرا على يد فلسفات العلم الوضعية.

خاتمة:

وفي الأخير، كانت نظرية فيرابند الميثولوجية هي " التعددية المنهجية" التي هي ذاتها الفوضوية أو اللاسلطوية المعرفية. فإن شئنا عنوانا لفلسفته للعلم فهو " العقلانية الفوضوية" التي ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية لمنهج محدد، وترفض أيضا تنصيب السلطة المعرفية للعلم بالذات، على أساس أن التقدم المعرفي يأتي عن طريق اطلاق طاقات الابداع والخلق والابتكار.